

الفكر الإصلاحى المغربى ومسألة الإصلاح الدينى:

الرحالات السفارىة أنموذجا (رؤية نقدية)

يوسف محمد بناصر
باحث مغربى



قسم الدراسات الدينية

على سبيل التقديم:

شكلت لحظة الصدمة للوعي العربى بداية موفقة لنقد الذات، كما أنها كانت لحظة مهمة للاشتغال على مسألة الإصلاحات الداخلية العربية؛ فحملة نابليون على المشرق سنة 1798-1801 واستعمار الجزائر سنة 1830، واستعمار جارتها تونس، ثم اختلال موازين القوى بين الأيالة التونسية والخلافة العثمانية التابعة لها، شكل كل ذلك دعوة مباشرة لمراجعة الذات وتتبع الاختلالات التى تضخمت وبرزت على شكل تناقضات صارخة، واضطرابات شجعت أطماع المستعمر الأجنبى، للتوسع بشكل ملحوظ، على حساب القوى الإقليمية العربية والإسلامية الكلاسيكية، وكانت تدخلاته بذريعة إجراء إصلاح شمولي فى المؤسسات والبنية الاجتماعية والسياسية وتحديث جوانب من حياة الناس.

لقد عاش المغرب كغيره من أغلب البلدان الإسلامية فترة حرجة، اتسمت بتداعي الفكر الخرافى والجمود الفكرى والعلمى وتهافتت القوى الخارجية عليه لموقعه الاستراتيجى من الجغرافية الإسلامية تاريخياً وجغرافياً وثقافياً، ولأن هذه الأسباب وغيرها - مثلاً هزيمة إيسلي 1844م ومعركة تطوان 1859 و1860م -، جعلت بعض المفكرين والتنويريين المغاربة ينتبهون لما يحاك ضد بلددهم من مكائد ومؤامرات، انبروا للبحث عن حلول للأزمة والإعلان عن رؤاهم الإصلاحية فى مختلف المجالات خصوصاً منها الفكرية والدينية.

بدأ تأسيس الفكر الإصلاحى المغربى إثر حركة تجديدية عامة، استهدفت مناهج التفكير والإبداع، لإخراج الأمة المغربية من سياق التخلف الحضارى لمواجهة تحديات الاستعمار وأسئلة التحديث، وكانت أهم النظريات الإصلاحية تستمد قوتها من أحد النموذجين إما حركة الإصلاح الدينى المشرقية أو الحركة التحديثية الغربية، مما أثر فى النموذج الإصلاحى المغربى خصوصاً فى شقه المتعلق بمقاربة الإصلاح من وجهة التصور الدينى، فاختلف المؤرخون فى تسمية فترات زمنية بحسب صعود بعض المشاريع الإصلاحية التى كانت موزعة بين السلفية [ذات مرجعية إسلامية نصية] والتحديثية [ذات مرجعية فلسفية غربية].

أولاً: سؤال الإصلاح أم سؤال التحديث وبأية مرجعية؟

إن الحاجة إلى التغيير كثيراً ما يكون تحت ظروف الاضطراب، حيث تحس المجتمعات الإنسانية بأنها وقعت فى مأزق التقهقر أو التخلف، أو عندما تلاحظ بعين نقدية مدى تضعف بنيتهما وقلّة مساهمتها فى الازدهار العلمى والثقافى وتراجع أدائها العمرانى، حينها فقط تعمل جاهدة على استعادة قوتها والبحث عن محفزات جديدة لوجودها والتنقيب عن قدراتها الإبداعية، لتعيد المجد لها عليها تلتحق بالركب الإنسانى من جديد.

وقد لاحظنا- من خلال بعض "الرؤى الإصلاحية" أو نماذج من أعمال رجالها التي اطلعنا عليها-، مدى تأثير العقل الإصلاحى المغربى بشكل واضح بالنسق المعرفى الذى يشتغل فيه، ألا وهو ميدان البحث والنظر والفتوى الفقهيّة، مما شكّل إطاراً موجهاً لمختلف تحركاته ومواقفه، ابتداءً بانتقاء المفاهيم التي يشتغل بها، والتي تخص ميداناً من الميادين، بغض النظر عن إن كان يستحق أن تعطى له الأولوية أو لا وانتهاءً بطرق التطبيق والتنزيل، وهنا من المفيد التنبيه إلى أن مفهوم الإصلاح لدى النهضويين المغاربة المحدثين لم يكن يحمل الشحنة الرمزية الإيجابية ذاتها التي يحملها لدى أقرانهم في المشرق، لقد كان أشبه ما يكون بالتعبير المستشنع، لأنه نشأ في سياق الضغط الأجنبي لإحداث إصلاحات في المغرب، ومن هنا نشأ شعور بالنفور منه، هذا بالتالي ما يفسر غيابه في كتابات العلماء والفقهاء مقابل حضور عبارات أخرى لديهم- تؤدي معناه- مثل "التحسين" و"النظام"¹، حيث يرى أغلب "المصلحين المغاربة" أن إشكالية تدهور الحالة السياسية والاجتماعية والاقتصادية هو أساساً راجع إلى تخلف الأمة عن الانضباط والنظام، وأن قدرة الغير أو الآخر في التقدم وتحسين حال معاشه كله راجع إلى حسن التنظيم والانضباط، فقام المفكرون بالتنويه بكل ما يساعد على حسن تدبير وتحقيق ذلك²، وهو ما يفتنقه المجتمع الإسلامى، فكانت دعوتهم مبنية على الدعوة إلى الرجوع إلى الدين الإسلامى الصحيح الذى يعلم ويربى ويصلح حال الدنيا والآخرة، فيقول محمد بن الحسن الحجوي بهذا الصدد: "أقبح الخلال التي أودت بالإسلام هو جمود متأخريهم على كل قديم وتفریطهم في حفظ النظام وإهمالهم إصلاح الأنظمة القديمة التي لم تبق مناسبة لأحوال المتجددة وغلبة الوهم على أفكارهم، حتى عدوا المحافظة على القديم من فروض الدين، وليس حفظ القديم ديناً إلا في المعتقدات والتعبديّات، وما سواها فالدين يقدم فيه حفظ المصلحة العامة وصون البيضة وارتقاء الأمة"³.

ارتبطت إذن، الحركة الإصلاحية المغربية بهواجس مراحل اللاسقرار؛ فكلما كانت هنالك ثورة أو عدو خارجي إلا وتعالّت صيحات ضرورة إرجاع النظام، والعمل على استتباب الأمن، وهو ما جمعه محمد الحجوي في كتابه "الفكر السامى في تاريخ الفقه الإسلامى" بقوله: "بدا انقلاب الأحوال بالمغرب بثورة أبو حمارة التي سببت فقر مالية المغرب والسلف الأوروبى، ثم سقوط المالية بيد إدارة السلف وفناء حماة المغرب وأبطاله في

¹ - عبد الإله بلقزيز، الخطاب الإصلاحى في المغرب التكوين والمصادر 1844 إلى 1918، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في الفلسفة، تحت إشراف د. سعيد بنسعيد العلوي، السنة 1993، جامعة محمد الخامس، الرباط، رقم تسجيله 68165، رقم التصنيف ر، ج، 191/ بلق، 30 يونيو 1994، ص 14

² - ألف محمد بن عبد القادر الكردودي الفاسى مؤلفاً بعنوان: "كشف الغمة ببيان أن حرب النظام حق على هذه الأمة"، حيث بنوه فيه بالنظام النبائى في أوروبا وتركيا، ليلوح إلى الرغبة في تحقيقه بالمغرب، وهكذا يقول: "والروم لعهدنا، وكذلك الترك فيما بلغنا: قصروا الشورى على اربعين رجلاً، فلا يبرم أمر عندهم إلا إن صدر عن رأيهم إشارتهم، وتسمى هذه الجماعة بالكرطى"، نقلاً عن محمد المنونى، نماذج من تفتح مغرب القرن 19 على معطيات نهضة أوروبا والشرق الإسلامى، أعمال الأيام الدراسية: الإصلاح والمجتمع المغربى في القرن 19، مرجع سابق، ص 197

³ - محمد بن الحسن الحجوي، النظام في الإسلام، المطبعة الوطنية 1928م، الرباط، ص 56، نقلاً عن الخطاب النهضوي بالمغرب، الإصلاح، التحديث والاجتهاد، عبد الإله بلقزيز، مجلة بصمات، عدد 5، السنة 1990م، ص 23

الإقبال كذلك لكون مخترعها بنى ذلك على قواعد منضبطة لا تختلف ومسائل فنية في غاية التحري والإتقان"⁹، فمن خلال هذه العبارات التي وردت على لسانه، يمكن أن نستشف الدهشة ومعها الحاجة لمثل هذا الإصلاح في بلده الذي سينتج عنه بالضرورة كثرة الاختراعات، وكثيرا ما يرجع هذا الإصلاح الأوربي الذي جلب لهم التقدم العلمى والتقى إلى شيء واحد كرره مرارا، وهو: "الضبط" و"النظام" و"الإتقان" و"الاعتناء التام".

وقد طرح الأستاذ محمد زنيبر سؤال التأكيد على مفهوم النظام في الوعى الجمعى المغربى - سواء منه الفئوى أو الشعبى- في مقابل غياب برنامج إصلاحى في القرن 19م خصوصا مع حاجة المغرب الملحة إلى إسعاف وإنقاذ؟ ليجيب عنه، بالقول إن هنالك عوامل وأسبابا تمنع ذكر ذلك من بينها؛ مرور المغرب بالمحنة الكبيرة في النصف الأول من القرن الثامن عشر، وبالأخص إثر وفاة المولى إسماعيل، وما ترتب عنها من فوضى وغياب السلطة وأزمة سياسية استعصى حلها، مما خلق جوا من الخوف العام، فتغير منظور الطبقة العليا في المجتمع، وتغيرت مطالبها وفي ضمنها العلماء والأشراف والأعيان في المدن، فخفت صوت النقد والاعتراض والمطالبة بالإصلاح. وأصبح الشغل الشاغل لهم هو الحصول على السلطة القادرة على إبعاد شبح الفتنة والحرب المدنية وإعادة الأمن إلى البلاد والنفوس [...]]، وهكذا أثر عدد كبير من العلماء في المدن تأييد الحكم، بغض النظر عن كل اعتبار، وهم في ذلك يظنون أوفياء لتقاليد السنة منذ الصدر الأول من الإسلام، الذين يفضلون وحدة الأمة، ولو في ظل حاكم جائر على تشتتها من أجل إحقاق الحق.¹⁰ فإلى جانب هذه المعطيات التاريخية والاجتماعية التي تضافرت لتشكّل جدارا نفسيا وموضوعيا يحاصر الأفكار الإصلاحية ويخنفها في مهدها، كانت هنالك أسباب أخرى متعلقة بالوعى الثقافى وبعيابه رؤية إستراتيجية لما يمكن أن تلعبه المعرفة من دور مركزى في التغيير خصوصا بعد انتشارها بشكل واسع في أوربا بسبب المطابع، إذ نجد العزيمة قد خملت والأنفاس خفتت عن البحث العلمى وتراجع فضول اكتشاف الجديد ونقله بالترجمة أو بغيرها، بل إن دخول بعض المطابع إلى المغرب أسهم في تكريس نفس الأنماط الثقافية السائدة، ولم يغير من ثقافة وعقلية الناس شيئا، وبقيت المناهج في المدارس وجامعة القرويين على حالها، وهو ما لاحظته روجر لو طورنو ماي لي بقوله: "فضل التعليم في القرويين معتمدا على المناهج التقليدية، وعلى الرغم من ظهور المطبعة، فإنها لم تؤد إلى أية قطيعة مع الماضى، بل عملت بالعكس على تكريس العقلية القديمة"¹¹، فهذه القابلية -السلبية- هي سبب آخر من أسباب عدم استفادة المغرب من الإصلاحات الأوربية، سواء منها الدينية أو السياسية أو

⁹ - محمد الحجوي، الرحلة الأوربية، أوربا في مرآة الرحلة، صور الآخر في ادب الرحلة المغربية المعاصرة، سعيد بنسعيد العلوي، كلية الاداب الرباط 95، ص 147

¹⁰ - محمد زنيبر، هل هنالك مصادر داخلية للإصلاح؟، ورقة مقدمة ل: أعمال الأيام الدراسية بالرباط 23/20 ابريل 1983 بالرباط تحت عنوان: الإصلاح والمجتمع المغربى في القرن التاسع عشر، منشورات ومناظرات رقم 7، جامعة محمد الخامس، ص 347

¹¹ - محمد الأمين البزاز، الإصلاحات والمشكل الصحى في مغرب القرن التاسع عشر، الإصلاح والمجتمع المغربى في القرن 19، مرجع سابق: ص 232

المرتبطة بالدعوة الوهابية من طرف الزوايا وبعض العلماء، سنلاحظ أن توجهاته الدينية الجديدة والمرفوضة عمقت من عزلته أمام القوى الدينية التي اهتمته بالوهابية صراحة خلال تمرد فاس في سنة 1820م²⁶. فالنقاش الدائر في عشرينيات القرن الماضي حول الحركة السلفية، وما استتبع ذلك من مواقف؛ كان بناء على ما تراكم من مؤلفات ومواقف سياسية ودينية وقعت وتم تداولها تاريخيا، ليتم استعادتها من جديد بشكل آخر لبناء فلسفة إصلاحية تستجيب للتحديات التي فرضتها قوى الاستعمار على الحركة الوطنية المغربية.

ثالثا: النظام السياسى وتحديات إصلاح الدولة والدين

عصر البيعة للسلطان الذي يتميز دائما بشرط إحياء الدين في النفوس وإماتة البدعة وإحياء السنة، وهناك سلاطين تم تصنيفهم، باعتبارهم نماذج لاتزال حية في التاريخ المغربى، حيث ارتبط اسمهم بحركة تصحيحية كالسلطان مولاي محمد بن عبد الله حكم ما بين [1757 و1790م]، ذو التوجه الحنبلى السلفى، صاحب كتاب: "الفتوحات الإلهية في أحاديث خير البرية" والسلطان مولاي سليمان الذي حكم ما بين [1797 و1822م] والسلطان المولى الحسن الأول حكم ما بين [1873 و1894م]، لقد ارتبط اسم السلاطين المغاربة عموما بالإصلاح الدينى، حيث لا ينازعهم فيه إلا ذوى الأطماع السياسية باعتبار صفة إمارة للمؤمنين التي يتمتعون بها دون غيرهم من المصلحين أو الزعماء، والناس يتبعون سلطانهم فيما يأمر به ولا ينازعونه في أغلب الأحيان، وهذه ربما كانت خاصية مغربية استمرت منذ القدم، ولكن رؤية الأمراء الإصلاحية للحقل الدينى كثيرا ما تكون محكومة بهاجس الاستيعاب والضبط له أو بممارسة صلاحياتهم الدينية، لتعزيز ثوابت الحكم وأركان الدولة، فهذه الأخيرة حامية الشريعة ومشروعيتها مستمدة من تطبيق الأحكام الشرعية، ومحاربة البدع وجمع الزكاة وإخضاع الخارجين عن القانون، كما أنها تواجه أية دعوة فكرية جديدة تخالف ما عليه المؤسسة الرسمية بالنار والحديد، لأنها قد تخفي وراءها رغبة في الاستيلاء على الحكم أو زعزعة أركان الدولة، والتاريخ المغربى مليء بقصص نفي بعض المصلحين²⁷ أو هدم الزوايا الإصلاحية²⁸ أو التي تنتهم بأنها تتبنى منها تصحيحيا يظهر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويضمّر مطامح/ مطامع سياسية.

نخلص مما سبق إلى نتيجة مفادها؛ ارتباط حال إصلاح الأمة بصلاح السلطان، الذي يحمل لقب أمير المؤمنين. فحتى تكون مطالبك شرعية، لابد أن توقعها في عهد البيعة لكي تحفظ، وإذا لم تحقق يمكن بعدها أن

²⁶- ينظر: محمد المنصور، الحركة الوهابية وردود الفعل المغربية عند بداية القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص 191

²⁷- على سبيل المثال الاستيلاء على الزاوية الدلانية بفاس سنة 1668م، نفى السلطان مولاي محمد بن عبد الله شيخ الزاوية الشرفاوية محمد بن العربي بن المعطي من زاويته بابي الجعد الى مراکش، وكذلك أمر مولاي سليمان بنفيه مرة أخرى الى فاس، وقد هدمت فيما بعد سنة 1784-1785م، تهديد الزاوية الناصرية سنة 1788م بالهدم، والقضاء على حركة الجيلالي الزرهوني الملقب ببوحمار سنة 1902 م في عهد السلطان عبد العزيز.

²⁸- على سبيل المثال النكبة التي تعرضت إليها الزاوية الشراذية التي أسسها أبي العباس الشراذى في عهد المولى عبد الرحمن، ينظر بحث الاستاذ محمد زنيير بعنوان هل هناك مصادر داخلية للإصلاح؟، الأيام الدراسية: الإصلاح والمجتمع المغربى في القرن 19، مرجع سابق ص 350

تنقض البيعة وتتم الدعوة إلى سلطان جديد أو الخروج في حركة تصحيحية أو ثورة هذا إذا كانت أركان الدولة مهترئة. أما إذا كانت في موقف القوة أو الاستقوى، فلا يمكن لذلك إلا أن يجلب الدمار والخراب، فهذا محمد بن الحسن الحجوي مثلا، يؤاخذ السلطان مولاي عبد الحفيظ على حفاظه على امتيازاته وتخليه عن إصلاح حال الشعب للفرنسيين المحتلين، رغم ما كان منه من تعهدات وبيعة على ذلك من طرف العلماء، بالقول: "فها أنت ترى هذا الرجل كيف حاله في المحافظة على شخصياته ومعرفته بطرق المحافظة عليها وتلونه فيها مما يشهد لذكائه في ذلك. أما من حيث الأمة، فنظره أنه لا حق للأمة ولا للملة الإسلامية ولا للمساكين ولا ولا ولا، وإنما هو وحده المقصود بالذات من هذا العالم"،²⁹ وهو ما أنهى فعلا فترة استقلال المغرب³⁰ بدخول معاهدة الحماية الفرنسية حيز التنفيذ، فتوالت الكوارث السياسية والبيئية والدينية على المغرب، ونقله إلينا محمد بن الحسن الحجوي بعين المواطن الغيور وبقلم المحقق والمؤرخ المتحسر في كتاباته.

وأما بالنسبة للآراء التي تعتبر أن للحركة السلفية دورا فاعلا في التقدم بالإصلاحات الدينية والسياسية، فقد برزت فيما بعد مع بعض رواد الحركة الوطنية المغربية، الذين مدحوا دورها الفاعل في بناء ثقافة دينية صحيحة وعقيدة قادرة على مواجهة التحديات الحديثة، وقد كتب علال الفاسي على سبيل المثال في كتابه: "الحركات الاستقلالية في المغرب العربي"؛ قائلا: "يظهر أن مراكش [المغرب الأقصى] مهياة أكثر من كل بلد إسلامي لقبول الحركات التي تطالب بالعودة للدين الصحيح والعقيدة والسنة"³¹، وكتب بدوره محمد حسن الوزاني في مذكراته بعد استعراضه لصيغة بروز وانتشار السلفية في المغرب على يد مشايخ كبار وتلامذتهم يعدون من رواد الحركة الوطنية³²، قائلا: "ومن هنا يتضح بجلاء أن الدعوة السلفية لم تكن وقفا على واحد دون آخر ولا في مكان دون سواه، لم تكن محتكرة في يد العناصر الدينية دون غيرها فضلا عن أنها لم تكن لها زعامة تتمثل في أي شخص بأية جهة من البلاد"³³. وهذا يبين لنا بوضوح أن الإشكالية التي كان زعماء الحركة الإصلاحية المغربية يخافون الوقوع فيها مرة أخرى، وهي تقطيع الشعب بمواقف وزعامات دينية

²⁹ - محمد بن الحسن الحجوي، دفتر تقييد بحوادث تاريخية أيام المولى عبد العزيز والمولى عبد الحفيظ، نشر بصفحة وثائق بمجلة وجهة نظر، العدد 52 ربيع 2012، الصفحة 52

³⁰ - يتحسر محمد بن الحسن الحجوي على انتهت إليه الأوضاع بالمغرب بالقول: "وتسلط على مناصب الدولة كل دخيل جاهل، فجر ذلك إلى تلاشي الدولة العزيمية، وتتابع المحن والظلم جو المغرب، وفي أثناء ذلك وقعت معاهدة 8 ابريل 1904م، بين فرنسا وانجلترا، ثم مؤتمر الجزيرة الخضراء 1906م، وبتأثر المؤتمر ببسبر سقطة الدولة العزيمية وقامت الدولة الحفيظية 1908م، ثم وقع اثر ذلك الاحتلال ثم إعلان الحماية 1912م، [...] هذه إحدى عشرة سنة رأى المغرب فيها من الأهوال والشدائد ما يشيب له الرضيع وتندك له الجبال" 30.30 - محمد الحجوي، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، المطبعة الجديدة [بدون تاريخ]، فاس الربع الرابع، ص 205 و 206، نقلا عن أوربا في مرآة الرحلة، سعيد بنسعيد العلوي، مرجع سابق، ص 73

³¹ - علال الفاسي، الاستقلالية في المغرب العربي، ص 133 و 137، نقلا عن الفكر الوطني المغربي، مرجع سابق، ص 65

³² - نذكر على سبيل المثال أسماء الرواد من بينهم: أبو شعيب الدكالي ت 1937م، الشيخ محمد بن العربي العلوي ت: 1964م والشيخ محمد المختار السوسي 1963م والشيخ تقي الدين الهلالي ت 1987م والشيخ الرحالي الفاروق ت 1985م، والشيخ محمد المكي الناصري ت 1994م، وعلال الفاسي ت 1974م وغيرهم.

³³ - محمد حسن الوزاني: مذكرات "حياة وجهاد"، ج 1، ص 331، نقلا عن الفكر الوطني المغربي، مرجع سابق، ص 66

الأمر الدينىة، إنما هو محض تحسينات قد لا يؤثر انتفاؤها وانعدامها على مصير الأمة ومسارها النهضوى، وبين أيدينا هذا النص الذي يبين لنا حيرة المثقفين المغاربة آنذاك تجاه التطورات الجديدة التي دخل فيها المغرب، والتي لم تعد تتحكم فيها المقاييس التي تعودوا عليها، والتي كانت لا تنطبق إلا على مجتمع إسلامي صرف، فهم أنفسهم بحكم تكوينهم وتصوراتهم لم يكونوا مهيين لتقديم نظرية عن الإصلاح، وهذا العجز يعلنه المؤرخ الناصري بكل صراحة، إذ يقول: "واعلم أيضا أن هؤلاء الفرنج في هذه السنين قد علا علوا منكرا وظهر ظهورا لأكفاء له، وأسرت أحواله في التقدم والزيادة إسراعا متضاعفا كتضاعف حبات القمح في بيوت الشطرنج حتى كاد يستحيل إلى فساد، وعلم عاقبته ذلك وغايته إلى الله تعالى المنفرد بالغيب".³⁶

وقبل الخوض في نماذج بعينها، أحبذ الإشارة مرة أخرى إلى أن الحديث عن الإصلاحية بدل التحديثية في مضمون هذا الموضوع، راجع لكون الإصلاحية مرتبطة بالحقل التداولي الإسلامي، وهي أقرب إلى الواقع الفكري والديني الذي يبدع فيه المسلمون، وهذه الملاحظة استرعت انتباه الأستاذ سعيد بن سعيد العلوي ووافق عليه الأستاذ عبد الإله بلقزيز، ليخرجا باستنتاج عند مقارنتهما بين "الاجتهاد" و"التحديث" مفاده أن الشريعة إذ تفسح للاجتهاد مساحة وتحث عليه، تبدي إعرضا عن التحديث ونفورا من الحداثة واشتقاقاتها، وذلك بسبب تداخل معناه مع معنى الابتداء، فلا شك في أن المسلم يستشنع المحدثات ويستشبع البدع، ولكنه بالمقابل يستحسن السنة الحميدة ويجند التجديد في أمر الدين، بل هو يرجوه ويطلبه.³⁷ إن الفقيه المجتهد بطبيعة الحال ينظر إلى المستحدثات من الأمور على أنها بدعة، ما لم تؤد لها دورا في خدمة مصالح العباد، وكل ما خالف ذلك يرتب فيما لا فائدة منه ولا عمل يرجى وراءه، بذلك يلغي هذا الحكم وجود تلك الأشياء، إما بمنطق الكراهة أو التحريم، وتبقى مساحة الإباحة ضيقة ما لم تعزز بحاجة الناس أو بغلبة البلوى أو قيام الضرورة أو ما جرت به العادة على المشهور بتعبير بعض المفتين، شرط ألا يكون سد الذريعة الذي تنتبئه السلطة السياسية بموافقة السلطة الفقهية غالبا- مواقف مولاي سليمان الاحترازية من أوربا مثلا-، ليوقف حاجزا أمام وصول الناس للاستمتاع أو لتلبية رغباتهم بالحصول على الممنوع من المستحدثات، وقد نقل عن سان روني طابنديي فيما بعد سفير فرنسا في طنجة - نتيجة لذلك- قوله في إحدى رسائله إلى وزير الخارجية ديلكاسي في يوليو 1901: "هذا بلد لم يرغب لحد الساعة في اتخاذ السكة الحديدية، أو خط التلغراف أو استغلال المناجم أو شق طرق صالحة للعربات: "في حين يصف أ.أوربان سكان المغرب بكونهم: "أشد الشعوب انغلاقا في الشمال الغربي الأفريقي"³⁸، ولا تنفرد الكتابة الاستعمارية بهذه الأحكام، بل تسيير بعض النصوص المغربية من طرف فقهاء حضريين، في نفس الاتجاه أيضا، نموذج ذلك محمد بن مصطفى

³⁶- ينظر: محمد زنيبر، هل هنالك مصادر داخلية للإصلاح؟، الأيام الدراسية: الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن 19، مرجع سابق ص 351

³⁷- ينظر: عبد الإله بلقزيز، الإصلاح والتحديث والاجتهاد في التداول المغربي الحديث، مجلة بصمات، ص 11، العدد 5، السنة 1990، ونفس المرجع منقولاً عنه، سعيد بن سعيد العلوي: الاجتهاد والتجديد دراسة في أصول الفكر السلفي في المغرب، مركز دراسات العالم الإسلامي مالطا ط 1992 ص 15

³⁸- عبد الرحمن المودن، بعض المواقف المغربية من المستحدثات التقنية في القرن التاسع عشر، أعمال الأيام الدراسية: الإصلاح والمجتمع المغربي، مرجع سابق، ص 367

المشرفى صاحب: "الحلل البهية فى تاريخ ملوك الدولة العلوية" الذى يرى أن "المغرب محتو على أوباش البربر وأجلاف الأعراب إلا ما قل منهم [...] وهم على غاية التوحش وشدة النفور من هذه المخترعات التى لم يألفوها ولا رأوها قط"³⁹. ولا أظن أن كل هذه الممانعة نشأت من فراغ، بل هى استمرار لعقلية دينية ترفض كل بدعة مستحدثة، فاستفحلت بجانب الأمية والجهل وخوف السلطة الرسمية من فتح الباب أمام الأجانب للاطلاع على عمق الأزمة، لتصبح هذه الأخيرة ظاهرة مستفحلة توجه ذائقة عموم المغاربة وكونت لديهم أحكاماً مسبقة، كما جعل المقدس سنداً شرعياً قوياً لدفع كل وارد أو مستجد دون كثير تبريرات، وإن منحت فرصة لبعض الإصلاحات بين الفينة والأخرى؛ فقد تم التمكين لفشلها مسبقاً بحكم عدم قابلية استمرارها، وهذا ما خلص إليه جرمان عياش عند قوله: "لا غرابة إذن أن جميع المحاولات الإصلاحية التى قام بها المخزن قدر عليها الفشل، وهذا ما يفسر فى الوقت نفسه أن المشاريع الإصلاحية التى تقدم بها بعض الفقهاء المغاربة لم تزد على أن تكون حبراً على ورق، أشباحاً دون أي جسم، دخاناً تلعب به الرياح"⁴⁰.

كانت الرحلات العلمية أو السفارية أو الأدبية التى قام بها بعض رواد النهضة العربية، قد كشفت لهم عن الشرخ الكبير بين حالة الشرق وحالة الغرب، ووضعهم بين منطقتين متناقضتين تقدم/ تخلف، مقصد دنيوية/ ومقصد أخروي، وهلم جر من مفاهيم الوعي الشقى، لبيتزعموا بعدها حركة النهضة فى بلدانهم معززين برؤية نقدية وإصلاحية، وهو ما فعله على سبيل المثال كل من رفاعه الطهطاوى عاش ما بين (1801/1873م)⁴¹ فى القطر المصرى، وخير الدين التونسى (1820-189م)⁴² فى القطر التونسى والتركى ومعه أحمد فارس الشدياق⁴³ (1804-1887)، ومحمد الفاسى⁴⁴ (1830-1868م)، ومحمد بن الحسن الحجوى⁴⁵ (1874-1956م) فى المغرب.

³⁹- عبد الرحمن المودن، بعض المواقف المغربية من المستحدثات التقنية فى القرن التاسع عشر، أعمال الأيام الدراسية: الإصلاح والمجتمع المغربى، مرجع سابق، ص 368

⁴⁰- جرمان عياش، إمكانيات الإصلاح وأسباب الفشل، الأيام الدراسية للإصلاح والمجتمع المغربى فى القرن 19، مرجع سابق، ص 362

⁴¹- رفاعه الطهطاوى (1801/1873م) من قادة النهضة العلمية فى مصر فى عهد محمد علي باشا. التحق رفاعه، وهو فى السادسة عشرة من عمره بالأزهر فى عام 1817 وشملت دراسته فى الأزهر الحديث والفقہ والتفسير والنحو والصرف، يبدأ المنعطف الكبير فى سيرة رفاعى الطهطاوى مع سفره سنة 1826م، إلى فرنسا ضمن بعثة عددها أربعين طالب أرسلها محمد على على متن السفينة الحربية الفرنسية (لاترويت) لدراسة العلوم الحديثة. وبدأ بممارسة علم، وبعد خمس سنوات حافلة أدى رفاعه امتحان الترجمة وعاد إلى مصر 1831م، وقدم مخطوطة كتابه الذى نال بعد ذلك شهرة واسعة تخلص الإبريز فى تلخيص باريز، المرشد الأمين فى تربية البنات والبنين، أما الكتب التى قام بترجمتها فهى تزيد عن خمسة وعشرين كتاباً، وذلك غير ما أشرف عليه من الترجمات وما راجعه وصححه وهذبه.

⁴²- خير الدين التونسى أو خير الدين باشا (1820-1890م)؛ هو أحد رموز الإصلاح بالبلاد التونسية، ولد سنة 1820 م فى قرية بجبال القوقاز، سافر خير الدين التونسى إلى باريس سنة 1853م، بتكليف من "أحمد الباي" ترك لنا حصيلة تأملاته وأفكاره الإصلاحية فى كتابه الشهير: أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك. وتوفى بتركيا سنة 1889 أو فى بداية سنة 1890 م.

⁴³- أحمد فارس الشدياق (1804-1887)، صحفى لبنانى كان يصدر صحيفة الجوائب 1881م - 1884 فى إسطنبول. من ألمع الرحالة العرب الذين سافروا إلى أوروبا خلال القرن التاسع عشر. كان الكاتب والصحفى واللغوى والمترجم الذى أصدر أول صحيفة عربية مستقلة بعنوان الجوائب متقفاً لامعاً وعقلاً صدامياً مناوشاً أيضاً. من مؤلفاته: الساق على الساق فى أحوال أوروبا، حيث أقام بلندن وباريس فترات متقوتة، والواسطة فى أحوال مالطة وغيرها.

إن الإصلاح الدينى الذى بدأ فى أوروبا منذ مطلع القرن السادس عشر مع "الحركة اللوثرية" سنة 1517م التى ربطت بين الدينى والدينىو بتأسيس أخلاق العمل البروتستانتية⁴⁶، ومعها بقية الحركات الأخرى، قد أعطت ثمارها على مختلف الأصعدة، ورمت بظلالها الوارفة على مستقبل أوروبا، هذا التأثير الإيجابى لم يلاحظه الكثير من الرحالة العرب، إذ اعتبروا أن المظاهر المتقدمة كانت نتاج تطور صناعى ومالى واكتشافات جغرافية فقط، فجعلوا هذه المظاهر فزاعة قد تأتى على الأخضر واليابس، فخافوا منها أن تدخل عليهم فتهلك التقاليد والعادات والعقائد، وهو ما حصل فيما بعد اثر اجتياح الثقافة الأوربية للبلدان المستضعفة، إذ يقول الناصرى عن ذلك فى كتابه الاستقصاء: "ولاحت على الناس سمة الحضارة الأجنبية"⁴⁷.

إن أهم ما يؤكد حاجة المغرب على وجه الخصوص إلى الإصلاح الدينى وقتها هو ما كان يصدر عن الفقهاء والرحالة من فتاوى دينية تعبر عن مدى التأثير الدينى ورواه الجامدة على الحياة عموماً، إذ ساعدت البنية الفقهية بكل مكوناتها، من زوايا وعلماء ومدارس وسلطة رسمية، فى بقاء الوضع كما هو عليه من تخلف، إلى أن اصطدموا بالغزو وهم فى عقر دارهم وتوالت عليهم الهزائم، كما تعاملوا بشكل بدائى مع مستجدات التقنية الإبداعات الفنية والأدبية الأوربية، ووقعوا فى مواقف مربكة بين إنكار لكل مظاهر الترف المالى والرخاء الاقتصادى والاجتماعى والاستقرار السياسى وبين القبول بها وشرعيتها بطريقة ساخرة وغير جدية على أمل أن تتحقق المعجزة، ويتم تبنيها رسمياً أو شعبياً، وهذا ما لم يتحقق بحكم أن العقلية الفقهية التى نقلت هذه الأفكار وانبهرت بها، كانت أساساً تحكمها مسابقات ثقافية ودينية؛ تجعل الأمر كله لا يستحق فى الأخير كل ذلك العناء، باعتباره مظهراً دنيوياً ليس وراءه أية مصلحة دينية محققة، وغالباً ما يوقع فى مفاصد جمّة، وهو موقف عبر عنه الناصرى معقبا على اقتراحات بعض الدول لإصلاح وسائل المواصلات بالمغرب، قائلاً: "...وإنما النصارى أجربوا سائر البلاد، فأرادوا أن يجربوا هذا القطر الذى طهره الله من دنسهم"⁴⁸، وهو ما نلاحظه كذلك فى كثير من مواقف الرحالة، ونبدأ بهذا التعليق لمحمد الفاسى الذى يقول فيه إثر مشاهدته مع الملكة البريطانية لمناورة بحرية: "والحاصل أنهم دمرهم الله يستعملون أشياء تدهش،

44- أبو الجمال محمد الطاهر بن عبد الرحمن بن محمد الرضى بن محمد فتاح- بن الطاهر الفاسى، (ولد 1830 وتوفى سنة 1868م)، سفير وفقه البلاط الملكى ومؤلف الرحلة المشهورة: "الرحلة الأبريزية الى الديار الإنجليزية".

45- ولد محمد بن الحسن الحجوى (ولد سنة 1874 بفاس وتوفى 1956 بالرباط)، وهو من أسرة عالمة ومتفتحة فاسية، درس، فى جامعة القرويين، العلوم النقلية والعقلية، ولكن كان له انفتاح على الثقافات الأجنبية القديمة منها والحديثة. من مؤلفاته: كتاب «الفكر السامى فى تاريخ الفقه الإسلامى»، الذى يعتبر مرجعاً أساسياً لتاريخ الفقه منذ عصر التشريع إلى الآن، و«النظام فى الإسلام» وهى: محاضرة فى الأصل ألقاها للدفاع عن الإسلام وللرد على من قال إن المسلمين لم يعرفوا نظاماً منذ ثلاثة عشر قرناً.

46- وهو ما أكده عالم الاجتماع الألمانى ماكس فيبر [1864-1920 م]، فيما بعد فى كتابه: "الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالى"، فهذه الرؤية الدينية أسست لقيمة العمل المعروف كفعل لتمجيد الرب وتعظيمه لا لتحقيق مكاسب شخصية، كما تتضمن الحركة الإصلاحية البروتستانتية مبادئ الادخار والانضباط والعمل الشاق، والفرادانية.

47- نقلا عن: محمد المنونى، نماذج من تفتح مغرب القرن 19 على معطيات أوروبا والشرق الإسلامى، أعمال الأيام الدراسية: الإصلاح والمجتمع المغربى، مرجع سابق، ص 200

48- نقلا: عن محمد المنونى، نماذج من تفتح مغرب القرن 19 على معطيات أوروبا والشرق الإسلامى، أعمال الأيام الدراسية: الإصلاح والمجتمع المغربى، مرجع سابق ص 201

سبما من رآها فجأة، وربما اختل مزاجه من أجل ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، كيف تحيلوا على إصلاح دنياهم، حتى أدركوا منها مناهم، واستعملوا لذلك قوانين وضوابط، وفي كل ما يقربهم منها غوابط، وفيه إشارة إلى أن طبيعتهم عجلت لهم، ولذلك نصيبهم وحظهم، وفيه إشارة أيضا إلى أن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها جرعة ماء⁴⁹. إن هذا الفقيه المثقف من هول ما رآه من أشياء تذهب بعقله، نبه إلى أن القادم عندما يقف موقفه فقد يختل مزاجه، كما أن كل تلك المظاهر هي مجرد أنعم مكنوا منها من الله، وهي حظهم من الدنيا، وهو نفس موقف محمد بن عثمان المكناسي في رحلته "البدر السافر لهداية المسافر إلى فكاك الأسارى من يد العدو الكافر"، عندما يقول: "الحاصل أن أمور الدنيا لم يعجزوا في شيء منها [يعلمون ظاهر من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون]⁵⁰، ولا يصف فيها المكناسي ما شاهده فقط، بل يصدر مواقف دينية عند كل فرصة، وكثيرا ما يصف الآخر بالكفر أو الطغيان⁵¹، وهو ما يتجلى في العتبة الأولى من كتابه أو في بنية العنوان. كما ينقل إلينا محمد الفاسي مرة أخرى بطريقة تظهر أن العقل الفقهي لم يكن على استعداد لتقبل أي إصلاح مادام يخالف البنية الكلاسيكية التي بنى عليها واقع جغرافيته الاجتماعية والسياسية والعلمية والاعتقادية، فيقول تعليقا وتلخيصا لسبب اكتشاف القوة البخارية: "وسبب إحداثهم له أن صبيا كانت بيديه ناعورة [لعبة للأطفال] صغيرة من كاغيد فجعلها متصلة بجعب [قناة صغيرة] في فم بقرج [كلمة تركية وتعني إناء لغيلان الماء لشرب الشاي] على نار، وبعد اشتداد غليان الماء فيه، فجعلت تدور بقوة ذلك البخار فراه رجل فتعجب واستنبت هذا -البابور- المعروف بعقله الظلماني، لأن العقل على قسمين ظلماني ونوراني، ظلماني به يدركون هذه الأشياء الظلمانية، ويزيدهم ذلك توغلا في كفرهم، والنوراني به يدرك المؤمن المسائل المعنوية، كالإيمان بالله وبملائكته ورسله وكل ما يقرب من رضى الله، ومن هذا الباب وصفهم الله في غير آية بعدم العقل وبعدم التفكير وبعدم الفقه⁵². إن هذا المنطق الذي يتم الاحتكام إليه من طرف الكاتب يعتبر منطقا مغلقا يجعل من جهتين، الأولى من جهته، باعتباره مثقفا ومحفز وعي وواضع تصورات واستراتيجيات، ومن جهة يغلق على القراء -الذين سيتلقون كتابه بالقبول الحسن بطبيعة الحال- باعتبار أن كل تلك التفاصيل ستصبح غير ضرورية، وهي من "العجائبية" التي يمكن التحدث فيها في مجالس المدام والتفكه بها، مما لن يسهم في تحفيز الخيال العلمي ولا الابتكار ولا النقد من أجل تقديم أو حتى محاكاة ما تم حكيه ونقله، فكانت سقطات العلماء ورجال الدين هنا أفزع، باعتبارها شرعنة عدم جدوائية نقل أو أخذ ما حكوه وشاهدوه في بلاد أوربا، بغض النظر عن المنافحة

⁴⁹ - أبي الجمال محمد الطاهر بن عبد الرحمن الفاسي، الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية 1860م، حققه وعلق عليه محمد الفاسي، مطبعة جامعة محمد الخامس، فاس، 1967م، ص 19

⁵⁰ - سعيد بن سعيد العلوي، أوربا في مرآة الرحلة، مرجع سابق، ص 29

⁵¹ - يقول المكناسي مثلا: "وقد استعدنا الطاغية ذات يوم لرؤية فرجة يستعملها يسمونها الوبرة [l'opéra] وهي التي يسميها الصبنيول [الاسبان] الكمدية [la comédie]" البدر السافر لهداية المسافر"، أوربا في مرآة الرحلة، مرجع سابق، ص 93

⁵² - محمد الفاسي، الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية، مصدر سابق، ص 28

عن إيمان الجماعة وعقولها "النورانية"، واتهام عقول الخير بـ"الظلمانية" وبأنها تتهاقت على أمور لا مصلحة دينية وراءها.

والغريب - رغم المواقف الراضية غالباً لكل مستحدث- أن تصدر بعض الفتاوى من طرف عمداء الأدب والفقهاء المغاربة لتخفيف الممانعة وخلق مساحة قبول بحكم الظروف القاهرة أو المآزق المتكررة، والتي توقع فيها مقتنيات التحديث، ونأخذ أمثلة حاولت بشكل أو آخر تركيب العقل الفقهي على "المنتجات الحديثة" وتقديم أجوبة للناس بشكل يتقبلون بعدها منتوجاً دينياً ظاهراً ومعه مصلحة دينية مخفية، بالاعتماد على القياس الفقهي لتبرير صلاحية التقنية، وجعلها خادمة للدين؛ فقد سئل الحجوي عن التلفون والتلغراف: "عما إذا ثبت عيد الفطر بمكناس أو الرباط بشهادة عدلين وحكم القاضي هنالك به وأخبر السلطان بواسطة التلفون أو التلغراف، هل يجوز الاعتماد على هذا الأخبار والإفطار أم لا"⁵³ ويجيب الحجوي: "إن التلفون، فإن كان متقناً، يتميز فيه صوت زيد عن عمرو، حيث يحصل العلم الضروري للسامع بأن هذا صوت فلان بعينه، فالذي يظهر أنه يجوز الاعتماد عليه بشرط أن يكون المخبر عدلاً واحداً فأكثر..، وهذه الفتوى منا جارية على أصل مالك بن أنس وابن حنبل في جاز شهادة الأعمى..، إذ القصد من الحديث هو التثبيت وحصول العلم الضروري لا خصوص المعاينة بالبصر، والأعمى محصل لذلك بدليل انعقاد الإجماع على تمكينه من وطء زوجته لحصول العلم الضروري أنها زوجته مع عدم رؤيته لها..، ومسألة التلفون هي كمسألة شهادة الأعمى فتقاس عليها من باب لا فارق"⁵⁴ ونفهم من هذه الفتاوى أنها اجتهاد داخل النص ومحاولة لتقريب الفهم للمسائل المستحدثة عن طريق وقائع ونوازل قديمة عن طريق القياس، وقد علق الأستاذ عبد الإله بلقزيز على هذه الفتوى بالقول: "إن الفقيه هنا ممتلك قضيته لا من باب انفتاح على ثمرات العلم فحسب، وهذا متقرر في ما أفتى به، وإنما من باب تشغيل يقظ لمدونه المعرفية الفقهية التقليدية، إنه اجتهاد إذن، من دون ابتداء"⁵⁵. إن تلك النصوص وغيرها ربما هي ما يفسر لنا ما كان يحيط بدورة التغيير من عقبات بنوية ونفسية كثيرة، جعلت حركة الإصلاح عموماً تبقى عالقة، لأنها لم تحتكم إلى نظرية إصلاح ديني تسبق ما كان من بساطة الأفكار وتأسسها على البنى التقليدية والخرافات وعدم النظر إلى عواقب الأمور، خصوصاً مع التحديات الصاعدة، والتي كانت في النهاية استسلام المغرب للاستعمار وانقسامه إلى مناطق نفوذ بين دوله.

ختاماً، إن الإصلاح الذي سعى إليه رواد النهضة المغربية في نهاية القرن 19 وبداية القرن العشرين، اعتمد على رؤيتهم الضيقة لما يمكن استفادته من الحضارة الغربية، فكانت نزعتهم للإصلاحات انتقائية، تحكمتها هواجس الخوف من الوقوع بين فكي التحديث التقني والحضارة المتغربة، فانبروا للبحث عن مجسات

⁵³ - محمد الحجوي، إرشاد الخلق إلى اعتماد في ثبوت الهلال على خبر البرق، مخطوط بالخزانة العامة، نقلاً عن: عبد الإله بلقزيز، الإصلاح والتحديث والاجتهاد، مجلة بصمات، 5، مرجع سابق، ص 16

⁵⁴ - ينظر: عبد الإله بلقزيز، الإصلاح والتحديث والاجتهاد، نفس المرجع السابق، ص 16

⁵⁵ - نفس المرجع السابق، ص 17

منطقية تسمح لهم بالبحث في أرضية الآخر عن المفيد على المستوى المدني، والذي تتحقق فيه مصلحة دينية، وهو ما عمل على اكتشافه كل من المصلح والمجتهد والمثقف، ولكنهم نسوا أن المجتمع سريعا ما سينقلب على الرؤية الفقهية الضيقة، ويتمسك بالتحديث الذي كان منطقهم أقوى من أي تأويلات أو قراءات مبنية على مسبقات اعتقادية، وهذا ما يظهر من اكتساح كل مظاهر المدنية الغربية البلاد في وقت ضيق، وتقبلها الناس بقبول حسن، وتكيفوا معها دون بحث من جديد عن الفقيه الذي يحل أو يبيح الكثير منها؛ فقد فقه الناس وربطوا بين مصالحهم وبين المستحدثات، ففارقوا واستنبطوا وعاشوا بالمنطق الذي يسمح لهم بالتوازن بين متطلباتهم المعيشية العادية، وما هو مسخر لتسهيل هذه المتطلبات وتمكينهم منها، إن المجتمعات تعمل على بناء تصوراتها بشكل بسيط ترتبط فيه معطيات كثيرة أهمها العقيدة المبنية على السماحة، وأن الأصل في الأشياء الإباحة لم يرد دليل قاطع بالحرمة، وأن الحياة تستحق أن يعطى لها من الأهمية ما يعطى للدين والعقائد، فلا سبيل لتحقيق صلاح أحدهما دون صلاح الآخر، وأن الحاجة قائمة دائما على الاستفادة من العلوم بقطع النظر عن اكتشافها أو كتبها، فلا سبيل لتحقيق تقدم و بناء حضاري من أرضية منعدمة؛ فالإنسانية كل متكامل لا تتحقق الأفضلية فيها بالإيمان وحده، ولكن لا بد أن يمتزج بالخيرية والعطاء، ثم إن إصلاح الذات بعد أن أنهكت بعوامل التقهقر قد يحتاج في بعض الأحيان إلى هزات وضربات موجعة تحتاج فيه الأمة إلى الاتكال على الآخر، إما اقتباسا أو مساهمة لاسترجاع القدرة على الحياة والحركة من جديد والمساهمة الإيجابية إلى جانب الإنسانية في البناء، وهذا منطق استبعده الإصلاحيون في أغلب الأحيان، إذ اعتمدوا على ما كان في تاريخهم من نماذج ورؤى لم تثبت نجاعتها فيما بعد، وأخيرا، إن رد الناس إلى الدين الحقيقي دون نحت تصور استراتيجي لحقيقة هذا المسار وتحدياته واستيعاب العوامل المحفزة عليه، قد ينعكس سلبا على الكل، فترتد الحركة عكسيا مخلفة خسائر في المبادئ والقيم وزعزعة في الاعتقادات، وهذا ما تمكنت النهضة الأوربية من تجاوزه ببلورة إصلاح ديني راشد ومعقلن، تقبله الناس بمختلف نزواتهم الدينية، ولم يعق تطور النظريات ولا الكشوفات ولا السياسات التحديثية، فتم الاستفادة منه في تحقيق أنموذج الحضاري والمحافظة عليه والتبشير به، ولم تنتبه إليه الإصلاحية العربي عموما والمغربية على وجه الخصوص، بل بقيت مشدوهة ومأخوذة بالنموذج المشكل والمنتهم، متناسية الأسباب والدوافع والخطوط المركبة له، وأنه كان من أولى الأولويات المرور بثورة دينية تصلح العقول والأفئدة قبل نقاش التحديث والتغيير، وهذا كان من أهم إخفاقات حركتهم الإصلاحية إذ أصابها في مقتلها، وهي في مهدها.



MominounWithoutBorders



@ Mominoun_sm



Mominoun

الرباط - المملكة المغربية
ص.ب : 10569
هاتف: 00212537779954
فاكس: 00212537778827
info@mominoun.com
www.mominoun.com